قضايا موضوعيّة وظواهر فنّية في شعر عبد العزيز المقالح

.د. عبده يحيى صالح الدباني1

د. ربيع علي طاهر2

المقدمة

لقد كرّس د. عبد العزيز المقالح جهده النقدي في تناول شعر اليمن الحديث وشعراءها بوجه خاص وسائر فنون الأدب اليمني بوجه عام، لكن المقالح شاعراً لم يجد من يتناول شعره من حيث أبعاده الموضوعية والفنية، خلال سنوات خلت فلما اتجه النقاد والباحثون في عهد قريب إلى شعر المقالح بالدرس والتحليل, هيمن على دراساتهم المناهج الفنية الحداثية، وانفرد بعضها بهذا الجانب أو ذاك من جوانب الأداء الفني لدى هذا الشاعر، كالصورة الشعرية مثلا، ولم يتناولوا "على حد علمي" قضايا شعره ومضامينه واهتماماته أو يجملوا الحديث عن أبرز الظواهر الفنية والأسلوبية في ذلك الشعر نفسه، لذا قدمنا هذا البحث المتواضع نسد به تلك الثغرة، ولكن بطريقة أفقية إجمالية لعلنا نقدّم ولو النزر aاليسير للمقالح وشعره مقابل ما قدمه للأدب العربي بشكل عام والأدب اليمن بشكل خاص.

ومن البديهي ان شعر المقالح من حيث اهتماماته وخصائصه الفنية قد مر بمراحل عدة لا تخلو من التشابه والتداخل، فقد رأينا أن يكون ميدان هذا البحث الأعمال الكاملة التي نشرت في مجلد واحد تحت عنوان (ديوان عبد العزيز المقالح) عن دار العودة بيروت 1977م والتي ضمت دواوينه الأتية: (لابد من صنعاء) و(مأرب يتكلم) و(رسائل إلى سيف بن ذي يزن) و (هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي) و(عودة وضاح اليمن)، فهذه الأعمال قد مثلت أخصب المراحل وارتبطت كثيرا بمعاناة الشاعر ونضاله وغربته واغترابه وظهوره على المشهد الشعري العربي المعاصر، وقد انطلقنا في دراسة شعره موضوعيا وفنيا من هذه الدواوين وهي أكثر شعره.

فقد رأينا أن نتناول أهم ما تضمنته من قضايا موضوعية وظواهر فنية وندع دواوينه الأخرى العشرة لوقفات أخرى، لما استجد بها من قضايا وخصائص من مثل: شعر المدن والأمكنة، والاصدقاء والمنزع الصوفي والمزاوجة بين شعر التفعيلة وقصيدة النثر وغير ذلك.

أ. مشارك كلية التربية -جامعة عدن - رئيس قسم اللغة العربية 1

أ. مساعد كلية التربية – ردفان – جامعة عدن رئيس قسم اللغة العربية 2

لمحة عن حياة الشاعر

ولد عبدالعزيز المقالح في آخر الثلاثينات من القرن العشرين في قرية تسمى (الشّعر) في محافظة (إب) من بلاد اليمن، وهذه المنطقة تعدّ من أجمل مناطق اليمن في جوها وخضرتها وتضاريسها.

كان زمن ميلاد الشاعر الاديب وطفولته وشبابه من اقسى المراحل التي مرت بها اليمن حيث كان نظام الائمة المتخلف مسيطرا على شمالها والاستعمار البريطاني على جنوبها على ما كان في عدن المستعمرة من بعض الاشعاعات الثقافية .

لقد أمضى الطفل عبدالعزيز الخمس السنوات الأولى من طفولته في قريته , ثم ساقته الأقدار إلى صنعاء عاصمة الإمام حين ذاك, وهو في سن الخامسة. هناك التحق بمدرسة الإرشاد وبدأ يحفظ الأناشيد التي كانت تدرس لهم , بيد انه ـ على حد تعبيره ـ عاش حياة بائسة في هذه المدينة خلال خمس سنوات شهدت خلالها صنعاء قيام ثورة 1948م, وإخفاقها ,ودخول القبائل المناصرة للإمام فيها وسلبها ونهبها. وكان الطفل عبد العزيز المقالح قد شهد بعينيه الصغيرتين الحزينتين كثيرا من تلك الأحداث البشعة. ولم يكن يبلغ الحادية عشرة من عمره, حتى كان في طريقه إلى مدينة يمنية أخرى هي(حجة) وهي منطقة جميلة, بيد أن الإمام يحيى جعل منها سجنا كبيرا لمعارضيه, وهناك أمضى أديبنا بقية طفولته ومطلع شبابه, وقد كان أبوه مسجونا في احد سجون هذه المدينة الرهيبة .

وقد تعرف الصبي على كل سجون حجة ومسجونيها, وارتسمت تلك الصورة في ذهنه, وانعكست فيما بعد في شعره، إذ طبع بطابع الحزن, رغم أن الظروف فيما بعد قد تغيرت.

بدأ يمارس كتابة الشعر في منتصف الخمسينيات, كأي شاعر مبتدئ, وكان ينشر قصائده باسم (ابن الشاطئ) ومن ثم بدأ ينشر قصائد باسمه الحقيقي لاسيما في جريدة النصر (الصادرة في تعز) وعند إقامته في حجة شارك في إصدار صحيفة مخطوطة اسمها(الرياضة) ثم عاد إلى مدينته المفضلة (صنعاء) قبيل الثورة تقريبا(1).

وحين قامت ثورة 26سبتمبر في صنعاء ضد النظام الملكي عام 1962م التي أطاحت به كان المقالح من بين رجالاتها, وكان في أيام الثورة الأولى يذيع بياناتها من إذاعة صنعاء, وعاش سنوات ما بعد الثورة في صنعاء, وقد كتب في هذه المرحلة كثيرا من الاشعار التي وجدناها في ديوانه الأول (لابد من صنعاء) وديوانه الثاني (مأرب يتكلم) وغيرها: كما كان له دور مشرف حين حوصرت صنعاء في 1967م شاعرا ومناضلا.

وبعد ذلك سافر إلى مصر حيث واصل دراسته الجامعية إلى أن حصل على الدكتورة عام 1977م ومن ثم عاد إلى بلاده وعمل طويلا رئيسا لجامعة صنعاء ومديرا لمركز البحوث والدراسات اليمنية ولا يزال حتى الآن رئيسا لهذا المركز. وتجدر الإشارة إلى أن هناك تفصيلات من حياة هذا الأديب ما زالت غائبة ولم نتمكن من معرفتها لاسيما في طفولته وشبابه وإنما قدمنا خطوطا عريضة عن حياته ومع هذا فهي تضئ جوانب كثيرة من شعره وثقافته ومواقفه.

شخصيته وثقافته

الحديث عن مكونات الشخصية . أي شخصية. يلحقه القصور أكثر من أي موضوع آخر، لأن معرفة بيئة الشخصية وزمانها، وروافد ثقافتها المكتسبة لا تكفي لمعرفة الشخصية, فهناك ما هو وراثي يفعل فعله في الشخصية، وهذا العنصر الوراثي في الشخصية يصعب تتبعه، والإمساك به لأنه ضارب الجذور في الآباء والأجداد, ومن هناك فإننا ندرس العوامل الخارجية أي البيئة التي أثرت في شخصية الأديب المقالح. ونستطيع أن نحدد العوامل التي ساعدت على تكوين شخصيته وثقافته من خلال ما يأتي:

1- كان لطفولة الأديب، وما صاحبها من بؤس وشقاء أثر واضح في شخصيته, وقد تجلى هذا في مسحة الحزن التي تجلل هيئته وتعامله مع الآخرين وتكمن وراء هدوئه وتأمله حتى في شعره. لقد جعلته تلك المرحلة أن يكون ناقما على الظالمين والمستغلين متعاطفا مع الفقراء والبسطاء والمقهورين والغرباء.

2- كانت سنوات طفولته وصباه وشبابه هي سنوات الزخم الثوري في اليمن فقد شهد طفلاً ثورة 1948م ويافعاً حركة 1955م وشاباً ناضجاً ثورة 26 سبتمبر 1962م فضلا عن قربه الروحي من ثورة الجنوب ضد الاستعمار, واستقلالها ومسيرة ثورتها, وأحداث حصار صنعاء, وغير ذلك من الأحداث على مستوى الوطن. أما على المستوى القومي والإنساني فقد كانت مرحلة تحرر وانعتاق وثورات وتحديث.

إن كل ذلك طبع شخصيته بطابع وطني ثوري, لقد رأى بأم عينيه المناضلين السجناء في حجة يسيرون في القيود بل وعاش معهم, وها هو يقول: " كنت أراهم عن قرب وأستمع إلى بعضهم, ولم أكن اعرف كثيراً مما يقولونه ولكني مع ذلك كنت أشفق عليهم كلهم وأحبهم جميعاً, لما كانوا يمثلونه أو يرمزون إليه من مقاومة العهد الذي كان يصنع كل هذه القيود والسجون, كنت أتصورهم ملائكة تحول القيود بينهم وبين التحليق في فضاء اليمن المتخلف الحزين. ورغم ما حدث من بعضهم أو حتى منهم كلهم فما تزال صورهم في القيود تثير العطف في نفسي إلى الآن"(2).

3- كان المقالح مفطوراً على حب القراءة بحكم تأمله وانزوائه, فعلى الرغم من قلة الكتب في اليمن في عهد طفولته وشبابه, فإنه كان يقرأ ما تقع عليه يده ويبدو أن معظم ما قرأ كان في الأدب بوجه عام. وقد تأثر شعرياً بالزبيري لاسيما من جهة الموضوع, إذ كان شعر الزبيري جله شعراً وطنياً, أما من ناحية طريقة كتابة القصيدة الجديدة, فقد تأثر بعبده عثمان على حد تعبيره.

4- كانت دراسته في مصر رافداً من روافد ثقافته وتكوين شخصيته لاسيما وقد حضر هناك رسالة الماجستير والدكتوراه وجالس الأدباء والمفكرين وعلى الرغم من أنه لم يسافر إلى مصر إلا وقد كان شاعراً ومثقفاً, فإن دراسته عززت كل ذلك وأمدته بالجديد.

5- نظرا لأن المقالح كان فقيراً ووطنياً ثورياً وقد ترعرع في مرحلة المد الاشتراكي فإنه مال إلى هذا الاتجاه الجديد وتغنى به, وتأثر بمبادئه وأطروحاته في السياسة والأدب, لاسيما وهذا المد التقدمي قد اجتذب إليه معظم الأدباء والمفكرين العرب في القرن العشرين .

القضايا الموضوعية في شعر المقالح

إن المتأمل في تجربة المقالح الشعرية يرى أنها تجربة متعددة أغراضها، فقد واكب الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشها المجتمع اليمني والعربي، وغالبا ما نجد تجربته الشعرية تأخذ موضوعاتها من خارج الذات أي من الواقع المجتمعي الذي تماهى معه، ومن هنا فقد تعددت الأبعاد الموضوعية في شعره بين الوطنية والقومية والإنسانية والاجتماعية.

ولو دققنا النظر في عنوانات مجموعاته الشعرية – على أساس أنها العتبة الأولى التي تسهم في الكشف عن موضوعات التجربة الشعرية – يؤكد ما ذهبنا إليه سلفا، وهو أن الهمَّ المجتمعي كان هو المسيطر على تجربة المقالح الشعرية، فدواوينه التي نشرت في مجلد واحد تحت عنوان (ديوان عبدالعزيز المقالح) عن دار العودة بيروت 1977م، التي ضمت خمس مجموعات شعرية هي على التوالي :

(لابد من صنعاء) و(مأرب يتكلم) و(رسائل إلى سيف بن ذي يزن) و(هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي) و(عودة وضاح اليمن)..تتمحور جميعها حول تجربة شعرية واحدة يتجسد من خلالها الواقع المجتمعي وما يعانيه من اغتراب

سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، وما استلهامه تلك الرموز التاريخية الموغلة في العقل الجمعي اليمني إلا دليل واضح عن عمق التجربة الشعرية وصدق شعورها، محاولا استنهاض وشحذ همم الأمة؛ وردم الهوة الشاسعة بين ماضينا وحاضرنا؛ لتواكب واقعها المعاصر والسير نحو المستقل الجديد.

وإذا انطلقنا من هذه الزاوية لدراسة شعر المقالح دراسة موضوعية فستتجلى أمامنا أبعاد موضوعية متفاوتة الحضور، ومن أبرزها الآتي:

1. **شعره الوطني:**

يعدّ معظم الشعر المعاصر في اليمن شعراً وطنياً محوريا، ولعل محمد محمود الزبيري هو رائد شعر الوطنية في اليمن المعاصر بدون منازع، وفضلا عن هذه النزعة الطاغية في شعر اليمن المعاصر؛ فإن الشعراء في اليمن في مرحلة الأربعينيات والخمسينيات على وجه التحديد كانوا هم المثقفين والسياسيين وهم قادة الحركات الثورية، وبالتالي كان منهم الشهداء في سبيل الحرية والعزة والكرامة كأمثال: الموشكي والزبيري والقردعي وغيرهم. لقد ارتبط القول بالفعل، والكلمة بالطلقة في هذه المرحلة العصيبة، فانظر إلى الزبيري حين قال:(3)

فتشت عن هبة أحبوك يا وطني فلم أجـد لك إلا قلبي الدامـــي

فما هي إلا سنوات حتى سقط الشاعر مضرجا بدمه شهيدا في سبيل عزة وطنه, محققا بذلك مقولته .

ويعد عبد العزيز المقالح واحدا من شعراء الجيل الثاني في اليمن الذين بدؤوا يشقون طريقهم في عالم الشعر في آخر الخمسينات، وقد جاء شعره مطبوعا بطابع الوطنية متأثرا بظروف بلده وبكفاحها وشعرها وشعرائها.

ولم تنح الوطنية في شعر المقالح منحى واحداً، إذ تعددت أبعادها وموضوعاتها؛ وقد اتبعنا في دراسته المذهب التاريخي، من حيث التزام التسلسل التاريخي للأحداث، وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث التي سبقت ثورة سبتمبر 1962م مثل انقلاب 1955م وانتفاضة القبائل في 1958م لم

نجد للمقالح فيها شعرا، على الرغم من أن له قصائد في مناهضة النظام الأمامي قالها قبيل الثورة وهي ليست كثيرة ولم تكن قد قيلت في أحداث تاريخية بعينها، وليس هذا مكان ذكرها.

أ. شعره في موكب الأحداث السياسية:

هو ذلك الشعر الذي قاله الشاعر في معمعة الأحداث السياسية في الوطن اليمني، ولقد اتبعنا في دراسته المذهب التاريخي، من حيث التزام التسلسل التاريخي للأحداث، وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث التي سبقت ثورة 26 سبتمبر 1962م مثل انقلاب 1955م وانتفاضة القبائل في 1958م لم نجد للمقالح فيها شعراً، على الرغم من أن له قصائد في مناهضة النظام الأمامي قالها قبيل الثورة وهي ليست كثيرة ولم تكن قد قيلت في أحداث تاريخية بعينها، وليس هذا مكان ذكرها.

لقد كانت ثورة 26 سبتمبر 1962م التي أطاحت بنظام الإمامة في شمال البلاد وأسست النظام الجمهوري أول حدث سياسي وجدنا الشاعر يتناوله ويؤرخ له ويصور فرحته التي هي فرحة الشعب بهذا اليوم العظيم الذي فجر قرائح الشعراء والأدباء ، وهذه قصيدة بعنوان (عاش الشعب) جاء فيها:(4)

وثأرت يا صنعاء رفعت رؤوسنا بعد انكسارْ

أخرجت من ظلماتك الحبلى أعاصير النهارْ

وولدت هذا اليوم بعد ترقبٍ لك وانتظار

إلى أن يقول :

سلمت أياديهم بناة الفجر عشاق الكرامة

الباذلين نفوسهم لله في ليل القيامة

وضعوا الرؤوس على الأكف ومزقوا وجه الإمامة

صنعوا ضحى سبتمبر الغالي لنهضتنا علامه

إلى أن يقول مختتما النص :

أين القصور تناثرت رعبا وألوان الرياش

أين الذين تألهوا سقطوا كما سقط الخفاش

في نارنا احترقوا كما احترقت على النار الفراش

مات الطغاة الظالمون، وشعبنا المظلوم عاش

فالأبيات توحي ـ على خطابتها ـ بجبروت النظام المنهزم، وكيف كان يمثل أسطورة ويخدع الشعب، وبأن النصر لم يكن سهلا، لقد قال الشاعر قصيدته، وألقاها في إذاعة صنعاء وأصوات المدافع ما تزال تلعلع، والثورة في بدايتها.

لقد كانت ثورة 26 سبتمبر في شمال البلاد فاتحة عصر جديد لليمن بوجه عام وكان من اضلوها وشهداؤها من كل أنحاء اليمن، وما هي إلا سنة واحدة حتى أمتد لهب الثورة إلى الجنوب حيث كانت بريطانيا مغتصبة البلاد منذ مائة وتسعة وعشرين عاما، فالثوار الذين عادوا من الشمال إلى المحميات في الجنوب طالبتهم قوى الاحتلال بتسليم أنفسهم وأسلحتهم، ولكنهم لم يعودوا لذلك، بل ليصوبوها إلى صدور المستعمر ويحرروا بها أرضهم، فكانت ثورة 14 أكتوبر عام 1963م التي انطلقت شرارتها الأولى من على قمم جبال ردفان، لتمتد إلى كل مناطق الجنوب. وحينذاك زعم الإنجليز أن هذا ليس إلا تمردا قبليا، وأطلقوا على ثوار ردفان لقب (الذئاب الحمر)، فانفعل الشاعر بالثورة وبرد الفعل الاستعماري إزاءها وكتب قصيدة بعنوان (نشيد الذئاب الحمر)، وهكذا طبيعة الفن إذ يلتقط الأشياء الصغيرة ويجسمها ويجعل منها علامات مفعمة بالدلالات الشعرية الثرية. يقول الشاعر: (5)

ذئاب نحن فوق جبالنا المشدودة القامةْ

نصيد الفجر، ننسج للضحى لنهارنا هامةْ

وننقش في جبين الشمس موكبه وأعلامهْ

ونحفر للدخيل القبر نسحقه وأغنامهْ

ومنها أيضاً:

ذئاب نحن حين تضج تحت الغاصب الأرض

ملائكة إذا عادت إلى أبنائها الأرض

وموت مناضل في درب أمتنا هو الفرض

على الأعداء كالنيران كالعقبان ننقض

على وكر النسور هنا مواقعنا على ردفان

نثبت راية التحرير نرفع راية الإنسان

ونكتب للزمان قصيدة ذهبية الألوان

قصيدة حبنا لديارنا للأهل للأوطان

هكذا كان العصر، عصر ثورة وتجديد، فكلمات المقالح الجديدة وصوره الحداثية تحاكي في جدتها أفعال المناضلين ونشاطهم السياسي والعسكري والاجتماعي.

ولم تكن طريق الثورة اليمنية مفروشة بالورود، فعلى الرغم من انتصارها فإن أعداءها ظلوا يتربصون بها، فقوى القديم لم تستسلم وقد وجدت من يغذيها من خارج البلاد، وظل الشعب في شمال البلاد يدافع عن الثورة والجمهورية رافعا شعار: (الجمهورية أو الموت) وفي الجنوب أستمر النضال المسلح أربع سنوات وحين بلغ تربص الأعداء ذروته، وزحفت القوات الملكية إلى مشارف صنعاء محاصرة إياها سبعين يوما، كان الشاعر هناك في المعمعة يؤدي رسالته الوطنية وهذه قصيدته (إلى السلاح أيها المواطنون) يستصرخ فيها الشعب كي يهب ليدافع عن الجمهورية الوليدة حتى لا يعود الماضي الأليم بكل صوره إذ يقول: (6)

إلى السلاح إلى السلاح دوى النفير

انتشرت على جوانب الشمس الجراح

يكاد يلفظ الأنفـــــــــــــــــاس

يختفي خلف العباءة الصباح

فقاتلوا..

أيلولكم مجنونة من حوله الرياح

"جنكيز خان" والمغول قادمون

الأهل والديار والبنون

غدا سيعدمـــــــــــــــــون

إن لم نعد السور والخنادق ونشرع البنادق

ويستمر الشاعر بهذا النفس الجديد الواضح يستنهض الجماهير إلى الدفاع عن صنعاء، وفك الحصار، ودحر الأعداء، ومع أن القصيدة خطابية فإن نصيبها من الفن كان كافيا , فضلاً عن أن الشاعر المقالح استخدم الشعر الجديد في التحريض والتثوير.

وهذا الأمر أقرب إلى القصيدة العمودية التي تصلح للخطابية والتأثير، ومع هذا فقد وفق الشاعر، وجمع بين جدة الشعر والتأثير في الجماهير، ولعل جدة الشعر تولد الرغبة في جديد الحياة ومواجهة قوى القديم المتخلفة، وكأنما رغبة الثورة في الجديد المواكب للعصر هي رغبة المقالح في الشعر الجديد، وخطاب المرء دليل عليه.

وفي الثلاثين من نوفمبر 1967م كان على بريطانيا أن تحمل عصاها وترحل عن عدن حاضرة الجنوب، على حد تعبير الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، تحت ضربات الثورة المتلاحقة في المدينة والريف، وحين ارتقى آخر جندي إنجليزي سطح السفينة العائدة إلى لندن، وارتفع علم جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، كان العامل البسيط في ميناء عدن، يردد أغنية الخلاص كما تخيله الشاعر، فهذه قصيدة بعنوان (رسالة عامل في ميناء عدن يوم الاستقلال) منها:(7)

منتصف النهار

مازال كفى خاويا

لم اتسلم بعد كسرة الإفطار

لكنني لست ككل يوم

أحلم بالرغيف عند الصحو عند النوم

في لحظة قتلت معنى الجوع في دمي

أصبحت أغنى أغنياء العصر

أحس أن قامتي تمتد في الفضاء

تضرب في التخوم

تطاول السماء

تقبل الشمس تعانق النجوم.

هكذا كان العامل حرا مبتهجا على الرغم من أنه لا يملك الرغيف، لقد رحلت بريطانيا من غير أن تقدم شيئا لهذا البلد، استغلت ثرواته على مدى قرن وربع من الزمن، لأنها خرجت بالقوة كما دخلت، ولم توافق الثورة على أي تبعية جديدة للاستعمار ولا على أية قواعد تحتفظ بها في البلد، فلا غرو من أن يكون العامل جائعا فقد كان مبتهجا بالنصر واما جوعه فمؤقت.

وهكذا كان شعر المقالح حاضرا في أهم الأحداث الوطنية في تاريخ اليمن المعاصر لاسيما في مرحلة الزخم الثوري.

ب. **شعره في تصوير معاناة ما بعد الثورة:**

لم تكن الثورة حدا نهائيا لمعاناة اليمنيين الشديدة، على الرغم مما حققته من نجاحات على مختلف الأصعدة، ثم إنها لم تحقق ما كان منتظرا منها أن تحققه، لاسيما على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، ويعود هذا إلى تكالب أعدائها منذ اليوم الأول لقيامها وإلى مستوى قادتها الفكري والثقافي , فضلا عن تردي أوضاع اليمن وعمق تخلفه، ثم إن رجالات الثورة ليسوا بملائكة لاسيما عندما وصلوا إلى سدة السلطة، فكثيرون هم أولئك الذين بدأوا حياتهم ثوارا وأحرارا وما أن وصلوا إلى الحكم حتى قلبوا ظهر المجون لشعوبهم، وأفسدوا الحكم وأفسدهم وأضحوا أحرى بأن يثار عليهم بعد أن كانوا هم الثوار، والتاريخ يطفح بالأمثلة والشواهد على ذلك.

لم يكن للمقالح شعر كثير في مقاومة النظام الأمامي قبل الثورة بحكم سنه لا لأسباب أخرى، وكأنما كان عليه أن يواصل رحلة الشعر الوطني النضالي في عهد تصحيح مسار الثورة الذي لم يخل أبدا من النكسات والنكبات والفساد والتخلف والعمالة والخروج على مضامين الثورة وأهدافها، فظل مع الشعراء من جيله يدق ناقوس الخطر ويقاوم بشعره كل أسباب التخلف ومظاهره مهما كان مصدرها، ومصورا المعاناة التي يعيشها يمن ما بعد الثورة ولهذا الشعر أهمية قصوى تاريخيا وسياسيا واجتماعيا وفنيا.

أن فشل الثورات في شمال اليمن أضحى ظاهرة جلية في تاريخ الشمال اليمني المعاصر حيث يخرج القديم مناورا من الباب ليعود مسرعا من النافذة ، فانظر كيف صور الشاعر معاناة ما بعد الثورة موضحا الفرق بين سلطة الأمس وسلطة اليوم، إذ يقول في قصيدته (اللغة الجديدة) (8)

بالأمس كان السيف والسكين	وسيلة الحوار بين القصر والجمهور
واليوم صارت الحذاء	آمنت أن الأرض لا تدور
أن سفينة الفضاء	خرافة وزور
أن النعيم في الحياة والبقاء	للجبن والغباء

وهذه صرخة أخرى على لسان أحد المناضلين الذي أضحى منبوذا غريبا في بلده في ظل الثورة التي ناضل من أجلها، يوجهها إلي أيلول، شهر الثورة المجيد الذي صار رمزا لها في الشعر وغير الشعر، بعد أن تحول إلى تاريخ وطموح فحسب إذ يقول:(9).

أنـــــت يـــــا محبوبنـــــا	يا من عبرنا نحوه جسر الدمـــــاء
يـــــا أبانـــــــــــــــا	أنت تدري أننا نحن بنـــــــــوك
أمنـــــــــا حين أتينـــــا	لم تكن قد عرفت بعد الزنـــــــا
لم يكن ضاجعها بعد أخـــوك	لا ولا مرت بعينيها خيول الدخلاء
فلماذا يزدرينا سارقـــــوك؟	كيف صرنا غربـــــــــــاء؟

هكذا هي طبيعة الشعر في التعبير عن الأفكار والعواطف والمواقف فقد جرد الشاعر من أيلول مخاطبا، ولا نجزم بأنه إنما قصد الثورة أو قصد شيئا بعينه، إن الرمز مفتوح يضخ كثيرا من التأويلات، ولا أرى أن الشاعر نفسه قد قصد شيئا بذاته، وإن يكن قد فعل ذلك، فلسنا ملزمين بقصده.

وهكذا فإن المقطع السابق يشير إلى أن كثيرا من مناضلي الثورة قد استبعدوا وهمشوا ، ووصل إلى سدة الحكم رجال طارئون لا يمتون إلى الثورة بصلة، وقوى متنفذة ومتخلفة تقاسمت الحكم غنيمة، هؤلاء هم الذين أعلنوا الحرب على المناضلين الحقيقيين الأوفياء.

لقد وجدنا الشاعر يقرر أنه لم يبق من أيلول إلا اسمه ووجدناه في قصائد أخرى يهاجم بشدة الصراعات الداخلية في حين أن الأعداء في الخارج يتربصون بالبلد وبجمهوريته الوليدة إذ يقول: (10)

أنقتل أنفسنا في المدينـــــة	ومن حول أسوارها تتمطى العيون اللعينة
أنشحذ للأقربين الخناجر	ونزرع فوق البيوت المقابـــــــــــــر
ونصلب أحلامنا في سكينه	وأعداؤنا يسلبون الديـــــــــــــار

وشموع النهار؟؟

ولم يكن هنا مجال استقصاء شعر المقالح في موضوع معاناة ما بعد الثورة فهو كثير وحسبنا ما ذكرنا منه وعلنا عليه فالمقالح لليمن كمثل درويش لفلسطين والبياتي للعراق وحجازي لمصر وأدونيس لسوريا، على أن المقالح لم يعد منذ الثمانينات صوتا معارضاً للسلطة، إذ استقر به الحال في رئاسة جامعة صنعاء ولعل هذا يعود إلى ظروف اليمن نفسها ورؤية الشاعر في الطريقة التي يخدم من خلالها بلده وعلى أية حال فهذا حكم لا نجزم فيه لأننا لم نقرا قراءة متأنية دواوينه الأخيرة لأنها لم تكن الآن بين أيدينا.

ج. قضايا اجتماعية

مهما يكن الأمر فلا نستطيع أن نحمل السياسة في اليمن كل المشاكل التي يعاني منها البلد فهناك مشاكل مردها التخلف الضارب بأطنابه في المجتمع والمستوى الاقتصادي الضعيف والموقع الجغرافي النائي الصعب في اليمن وأشياء أخرى , بل لعل هذه الأمور مجتمعة هي التي أفشلت ثورات الشمال، وكل تلك القضايا لم تغب عن ذهن الشاعر وقلبه وهو يتغنى ببلده ويصور ماضيها وحاضرها ومستقبلها وهو يدرك كغيره من الصفوة المثقفة في اليمن أن مشكلة البلد الرئيسة تكمن في التخلف والجهل فإذا مازال هذا البعبع صلحت سائر الأمور إلى هذا الحد أو ذاك؛ ولعل ما حلم به الشاعر في تلك السنوات قد تحقق اليوم بعض منه؛ لأن حلمه واقعي لا رومانتيكي والحلم الواقعي يأتي من استقراء عميق للواقع(11). أما الحلم الرومانسي فهو هروب من الواقع، أو مثالية مستحيلة التحقيق غالبا.

وفي قصيدة: (مأرب والفار والإنسان) يصور بأسى وتطرف حالة البلاد اليمنية المتأخرة فكريا واجتماعيا وما هذا الفار اللعين إلا رمز للتخلف وخراب الأوضاع وفسادها(12):

الآخـــــــــــــرون هنـــــــــاك حـــــولنـــــــــــــــــــا
وفوقنـــــــــــــــا في البحـــــــر في الفضـــــــاء في التخـــــوم
مســافـــــــــــــــرون شـــــــدوا رحـــالـــــــــهم إلى القمـــــــــر
أعطت لهم قيادها النجـــوم ونحن فوق الرمـــــل مسلوبـــــون جامـــــدون
نلهث حيث لا ماء ولا شجر نشـــــرب من دمـــــــــــاء بعضنـــــــــــــا
نأكل من لحوم أمهاتنا وأهلنا تقيحت أفكارنا تقيح النهار على جدار سدنا المنهار .

هذه هي طريقة الشعر في نقد الأوضاع وفي التصوير والتعبير بوجه عام طريقة مستفزة ثائرة متطرفة إذ لا حبذا التطرف إلا في الشعر والفن عموما؛ لأنه يبرز المثال ويكمل الناقص ، وقديما أشار أرسطو إلى هذه المسالة فطريقة الشعر ليس من عادتها بسط الأعذار أو مداراة القبح أو التعلل بظروف الواقع كما يتعلل بذلك السياسيون، أن الشاعر ليس مؤرخا أو مصلحا أو باحثاً اجتماعياً، بل ولا سياسيا ولكن قد يكون كل أولئك وأكثر بطريقته الخاصة في الرؤية والتعبير .

واني اكاد اجزم ان مأساة اليمن قد شخصها أدباؤه وحضروا دواءها , بانتظار من يستلهم ذلك .

وفي قصيدة : (الأم الميتة والرضع الكبار) يصور الشاعر ظاهرة من ظواهر التخلف في شمال اليمن تحديدا هي فساد الضمير لدى الكثير من الناس لاسيما ذوي المكانة الاجتماعية العالية في المجتمع والدولة فهم يسرقون خيرات بلدهم ويستأثرون بالمال العام ويتصرفون بأنانية فجة وبغير أمانة وهذا كله من ضعف الوعي والثقافة والفهم الصحيح للإسلام والإيمان يقول الشاعر:(13)

مذبوحة على طريقكم مقطوعة اليدين والأثداء

مفـــقـــــــــوءة العينيـــيـــــن لا لبنا أبقت لها سنينكم لا ماء
فمـا الذي تفتشـــــون عنـــــه تمتصـــــــون في الثـديـيـن؟
حتى الدمـــــاء ترضـــــعـــون حتـى الدمـــــوع تشربـــون
لا شبعـــــت بطـــــــونـــكم ولا الأمعـــــــــــــــــاء

لقد جسد الشاعر صورة تدل على نذالتهم وتطفلهم وأنانيتهم وهي أقرب إلى السريالية أو اللامعقول فهم بدلا من أن يبنوا بلادهم نجدهم يستنزفون طاقتها ويعيشون عالة عليها وهاهم الرضع الكبار اليوم قد كثروا ويعتقدون أن رضاعتهم طبيعية، أنهم يستحلون المال العام ويستنزفونه.

ومثلما جسد الشاعر بكلماته صورة الرضع الكبار والأم الميتة صور كذلك (البرجوازي). ولعل الشاعر في ثورته على هذا البرجوازي وأمثاله كان متأثراً بالفلسفة الماركسية التي جذبت إليها جل الأدباء العرب خلال القرن العشرين ومهما يكن فهو يصور مشكلة اجتماعية تجسدت في هذا البرجوازي الانتهازي لاسيما أن برجوازية الدول المتخلفة تكون متخلفة مثلها فكريا وثقافيا ويكون همها الكسب أولاً وأخيراً، وهذا الحكم ليس مطلقا، لان من البرجوازية من تحلى بالوطنية وبنا بلده وتحمل مسؤوليته التاريخية يقول المقالح : (14)

احذروه هو مخلوق من الوهم مجازي حية ضاحكة الأثواب تدعى البرجوازي
في الأسى في الحب في الدين انتهازي ليس في قاموسه للحرب أهلي وغـازي
لا ولا فرق لديه بين ثوري ونـــازي كلهم أحبابه أرقامه حتى المخـــــــازي

إلى أن يقول:

رأسه ما رأسه من بنـــكنـــــــــوت عقله ينسج في الأسواق للمال البيوت
ثم يطويها كما يطوي النسيج العنكبوت عالمي كفـــه والغة في كـــــل قوت
وانعزالي إذا هدده المد صمـــــــــــوت انه يحيـــا مع المـــال وبالمـــال يموت

ترى هل لهذا الشعر من قيمة وقد انهارت التجربة الاشتراكية في عقر دارها وصارت البرجوازية حرة طليقة وطنيا وعربيا وعالميا ولم تعد وصمة ولكنها امتياز وشرف وسلطة مباشرة وغير مباشرة؟ لاشك في أن لهذا الشعر أثره بصرف النظر عن خفوت نجم الاشتراكية وارتفاع نجم البرجوازية فالشاعر يصوّر سلوك ذوي المال وتعاملهم مع الآخرين وانتهازيتهم والفلسفة الحياتية التي ينطلقون منها تصويرا واقعيا عميقا.

ومثلما كان الشاعر ينتقد الوضع الاجتماعي القائم في بلاده برؤيته العاطفية وصوته الشعري فقد كان يعبر هذا الواقع إلى مستقبل رغيد لشعبه وبلده من خلال جسر الشعر فالشعر عنده كما يقول: "رؤى لعالم جديد ومحاولة للنفاذ من خلال الحلم مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، ليس في عالم الواقع المادي فحسب، بل وفي عالم الحلم نفسه"(15).

وهكذا وجدنا المقالح حزيناً من جراء ما تمر به بلده من ظروف وتأخر، بيد أن هذا الحزن مفعم بالتفاؤل والأمل بغد أفضل لاسيما إذا عرفنا أن الشاعر كان تقدمي الفكر واقعي الشعر فانظر إليه يخاطب فارسه المنتظر

قائلا: (16)

يا فارسا أحببته من قبل أن تلمحه عيناي أو تراه أحببت فيه شعبنا

ما كتبت ما صنعت يـداه رأيتـــــه فـــــــــي مـــــأرب

حضرت في معبده الصلاة سمعتـــــه يخطـــــب في الجموع

غـــــــدا سنعلــن الرجوع ونمسح الأحزان عن صنعاء والدموع

هكذا ينتظر الشاعر فارسه وفارس بلده كي يعيد لها وجهها الحضاري المشرق، ثم ما أكثر المعاني التي يضخها هذا الرمز الشعري الواقعي.

أما ديوان الشعر الثالث: (رسائل إلى سيف بن ذي يزن) فهو برمته خطاب لذلك الفارس الذي رأيناه قبل قليل، انه سيف بن ذي يزن الرمز والواقع ولا نريد أن نحدد هويته لكيلا يفقد الشعر حيويته وتوهجه وانفتاح تأويله، فقد تجلّى من خلال رسائل الشاعر الشعرية إلى سيف ين ذي يزن

الواقع والرمز والتاريخ والأسطورة أمله الكبير بتحقيق وحدة بلده والعيش في كنف العزة والكرامة والحرية. وهذا مقطع من إحدى القصائد الرسائل يقول فيه: (17).

تعال فإننا نأسى عليـــــك وجوهنـــــــــــا خـــــــجـــــلى

وما عدنا بلا جنـــــــــــد لقد شب الصغار وصار كل مغمط كهلا

وخلف الغيم أمطـــــــــار وفي الأعماق تحـــتـــشـــد الأبابـــيل

وإبرهة يناور وهو مأكول ومـــوعدنـــــــــا نهـــــــــــارا

حين تأتي بعد جـــــدب الصيـــــــــــف أيـــــلـــــول

رغم كل تلك الأحداث الجسام التي مر بها اليمن فقد تجلت ملامح التفاؤل في كثير من القصائد التي تحمل في اثنائها الأمل والانتظار وتجاوز الواقع الحاضر إلى واقع أفضل وأجمل, ولكن هذا الصنيع ليس هروبا من الواقع كما يفعل الشاعر الرومانسي ولكنه نوع من مواجهة الواقع نفسه, والحلم على أساس ما يعتمل فيه ومن استقراء شعري للماضي والحاضر والمستقبل. ثم أن شاعرنا هذا لم يكن حزنه وأمله ذاتيين فقضيته هي قضية شعب وأمة, وقد تجلت ظاهرة شيوع (الأمل) في شعر المقالح بوضوح .

وهناك كثير من الامال التي حلم بها الشاعر صارت فيما بعد حقيقة ماثله مثل تحقيق وحدة اليمن ما يؤكد أن أحلام الشاعر واقعية مشروعة إذ يقول: (18)

ماذا يقولون ؟

صارت مجزاة القلب مكسورة الوجه صار اسمها في المحافل صنعاء يوما ويوما عدن

لا أصدقـــــــــــــــــــهم فهي واحدة كلما أثخنت في التراب السكاكـــين

أدمى التراب السكـــــاكـــيـــن وانـــــدمـــــــل الجـــــــــــــرح

واسترجع الجسد اليمني الممزق أبعاده شكـــــــــــــــله واستـــــــدارته

نهضـــــــــــت من خرائبـــــــه المقـــــفـــــــرات اليـــــــمـــــــصن

وإذا كان الجسد اليماني قد استعاد لحمته التي عاشت تاريخيا منفصلة عن بعضها الا فيما ندر، فأن التحام اللحمة لم يستمر إلا قليلا حتى طغى حكام الشمال على حكام الجنوب وصرعت الوحدة السلمية الشرعية في مهدها وتحول الحلم الى كابوس والتوحد الى تشظ اجتماعي ونفسي وثقافي اسوء من الاف المرات من أي انقسام يفضي الى دولتين كما كان , ومع هذا يظل حلم الشاعر محموما ومحسوما.

د. قضايا قوميه وإنسانية:

قد اشرنا في مكان سابق إلى أن شعر اليمن المعاصر كان في معظمه شعراً وطنياً, وشعر هذا هاجسه, لابد أن يكون فيه نصيب للقضايا القومية والإنسانية؛ لأن الإنسان الوطني الجيد ـ كما قيل ـ هو الإنسان القومي الجيد والإنساني الجيد فالأمور مترابطة الأسباب والنتائج, والمقالح كغيره من شعراء اليمن المعاصرين كان للقضايا القومية والإنسانية نصيب كبير في شعره, بل لعله ابرز الشعراء اليمنيين المعاصرين الذين افردوا قصائد كثيرة لهذه القضايا ـ إن لم يفقه البردوني ـ وذلك بحكم دراسته في مصر .وبحكم نزعته التقدمية الواضحة وغزارة نتاجه الشعري. وليس عجيبا ألا نجد شعراً إسلامياً مباشراً في أعماله الأولى التي ركزنا عليها في هذا البحث وحددناها سلفا , كما وجدنا عند الزبيري وآخرين لأنه من الأدباء الذين استهوتهم النظرية الاشتراكية واخذوا نصيبا من ثقافتها وفلسفتها ولم يعطوا للأمور الإسلامية, إلا ما كان يخدم الوطنية أو القومية أو الأممية وكانت أهم القضايا القومية التي أخذت طريقها إلى شعر المقالح تتلخص في نصرة القضية الفلسطينية, والإشادة بدور مصر العربية وزعيمها جمال عبدالناصر في استنهاض الدول العربية والأخذ بيدها على طريق التحرير والانعتاق, فضلاً عن مباركة الثورات العربية.

فها هو الشاعر يخاطب زميله الشاعر الفلسطيني سميح القاسم بان يقف مكانه في أرضه متحملاً المعاناة, وهذا يدل على ما اشرنا إليه من نزعة ثورية متحدية مواجهة في شعر المقالح, وكان ذا معرفة حصيفة بالشؤون السياسية و الثورية, ولا عجب فهو تلميذ الزبيري, وابن القضية اليمنية ونجل احد الشهداء الأحرار, يقول الشاعر مخاطبا سميح القاسم: (19)

مكانك لا تبرح الأرض سمّر عيونك.. أقدامك العاريات
عليها ـ وأهدابـــــك الذابـــــلات إذا لم يكـــــــــن لـــــــــك بيـــــت هنـــاك
وكوخك أصبح مأوى لخيل الغزاة تحســـــــــس علـــــى الأرض قبـــــــــرا
ليأويك يأوي رفاتك عند الممـــات مكانـــــــــــــك سمـــــــــــر خطـــــــاك

إلى أن يقول :

مكانك جوعـــــــك زاد البطـــــــــولة وموتـــــــــك زيت العيـــــــون
وصوتك من خلف أسلاكهم يصنع الفجـر يصـــــــــنع حلـــــــم الرجوع
ويكتب ما كان بالأمس, ما في غدٍ سيكون بقـــــاؤك في السجن حرية للعبيد
ومحرقة للسجون

هكذا يبدأ الشعر (مكانك) كما تخرج الطلقة من غير مقدمات

وهناك قصائد أخرى كثيرة تحسست الجرح العربي الفلسطيني وفاحت بدمائه الزكية.

وفي قصيدة (تحت قنديل أم هاشم) يقول الشاعر مخاطبا القاهرة.. المدينة والناس و (البطل): (20)

يا أم النور مددْ يا مئذنة السارين مددْ

لم يبق أحدْ.. ما عاد على درب الغادين أحدْ

يا أخت الشهداء الثوار يا أم ملايين الأحرار

بعضا من زيت القنديل الأخضر يحمله النيل يطير به فوق البحر الأحمر

ومن أجلّ وأجمل القصائد القومية, قصيدة (العبور) التي نالت شهرة كبيرة حتى أنها كانت تدرس ـ ولعلها لا تزال ـ في مصر ضمن المقرر الدراسي للطلاب, وكان الشاعر قد كتبها بمناسبة عبور الجيش المصري خط بارليف عام 1973م, مما جاء فيها: (21)

يا عابر البحر ما ابقى العبور لنا وما عسى تصنع الأشعارُ والصور

أبطالنا عبروا مأساة أمتهم ونحن في كفن الألفاظ نحتضر

تقدموا عبر ليل الموت ضاحكة وجوههم وخطوط النار تستعر

وأشعلوا في الدجى أعمارهم لهبا للنصر واحترقوا فيه لينتصروا

عبورهم أذهل الدنيا وموقفهم تسمرت عنده الأقلام والسير

وددت لو كنت يوماً في مواكبهم أو ليتني كنت جسراً حينما عبروا

لقد ودّ الشاعر لو أنه كان حاضراً في مواكبهم، وودت أنا لو أنه قال (في كتائبهم) بدلاً من (في مواكبهم)؛ لأن كلمة (المواكب) لا تنسجم مع الجيش المقتحم وهي أقرب إلى المسيرات الشعبية، سواءً استخدمها الشاعر على وجه الحقيقة أو على سبيل المجاز ومهما يكن فهي قصيدة رائعة نجد فيها ريح الزبيري، بقصائده العصماء الملتهبة، على ما في قصيدة المقالح من جديد الصور وهدوء اللغة.

أما ما يخص شعر المقالح في القضايا الإنسانية فهو وفير، وهو يتسم بطابع الأممية والاشتراكية والعدالة الاجتماعية، فهذه (قبلة إلى بكين) يرسلها الشاعر لتنطبع على جبين المدينة الصينية (بكين) العاصمة الاشتراكية الشهيرة، بيد أن هذا الحب ليس محايداً فهو لم يحب (بكين) بوصفها مدينة فحسب، ولكنها تعني مدينة وشعباً وتجربة ونضالاً وقضية، لقد زار الشاعر باريس مثلاً ولكنه لم يكتب فيها شعراً ولعلها أجمل من (بكين) بيد أن الجمال عند الشاعر هو جمال الحق والعدل، والعمل والاشتراكية من وجهة نظر الماركسية نفسها.

يقول الشاعر: (22)

متى أمر تحت قوس النصر في ساحتك الحمراء أرسم قبـــــلة على الجبين

جبينـــــــك الأخضر يـــــــا بكـــــــــين أطلق باسم اليمن الخضراء

حمامة بيضاء

إلى أن يقول:

متى قرأت أول الحروف وبي إليك يا أماه

حنين طفل تاه أضاع أمه على طريق الوحشة المخوف

وبعدها أباه ولم يعد مازال تائهاً تسحقه الظروف

حتى تراك مرة عيناه

لم يكن الشاعر ليهتم بجمال المدينة الحسي، ولم يصفه لنا، أنه يحيي المدينة القضية وهذا هو القاسم المشترك بينه وبينها حتى صارت له أماً، فكأني به يخاطب صنعاء، وهنا تصل النزعة الإنسانية أو الأممية عند الشاعر إلى ذروتها، ولكنها نزعة مرتبطة باتجاهه الفكري، ولا ضير فإنما الإنسان موقف.

ظواهر فنية في شعر المقالح

تجلت في شعر المقالح ظواهر فنية كثيرة، بعضها يرتبط بلغته الشعرية، وبعضها بالتصوير والموسيقى، وبعضها يقترب من المضمون ولكنه يعد سمة فنية كظاهرة الحزن التي تخللت شعره، وقد قال عنه البردوني: "لقد حقق عبدالعزيز ما يصعب على الكثير تحقيقه وهو الأسلوب المميز كشعار البرنامج الأساسي في إذاعة" ثم يضيف موضحاً أسلوب المقالح:

"صوت عبدالعزيز هادئ في حدة، وكذلك عبارته في شعره فهي هادئة مرهفة النصل لها مخالب وأنياب، ناعمة تلمس بشجى ولكن لا تهز الداخل"(23) وسنتناول هنا أبرز الظواهر الفنية في شعره على النحو الآتي:-

1. **توظيف التراث:**

أهتم الشعراء العرب المعاصرون ـ لاسيما شعراء القصيدة الجديدة ـ بتوظيف التراث في أشعارهم كأقنعة ورموز فنية تحمل أفكاراً معاصرة، وهذه السمة عدها الباحثون، من الظواهر البارزة في الشعر العربي المعاصر، ومن المعلوم أن التراث واسع فهو يضم الأساطير والأحداث التاريخية والشخصيات المختلفة التي تمثل معظم جوانب الحياة بخيرها وشرها، ولم يقتصر الشعراء على التراث العربي إذ امتد نشاطهم إلى التراث الإنساني بوجه عام.

ولا شك في أن التعبير من خلال توظيف التراث يكون أكبر أثراً في النفس من التعبير المباشر لما يتطلبه الفن الشعري من إيحاء وتلميح وتعدد احتمالات للقراءة والتأويل بل تجدد التأويل من مرحلة إلى أخرى، فضلاً عن أن فيه ربطاً بين الماضي والحاضر وهو يساعد على التكثيف الشعري والتجسيد والإدهاش وهذه من وظائف الفن .

وشاعرنا المقالح واحد من هؤلاء الشعراء المعاصرين الذين استهوتهم هذه الظاهرة فقد وجدنا في شعره حشداً ضخماً من الرموز التراثية سواءً كانت يمنية أم عربية أم إنسانية وهي بحق ظاهرة تلفت الانتباه.

فمن القصائد التي وظفت التراث الإنساني قصيدة ((عدن ودون كيشوت)) ودون كيشوت هذا بطل رواية اسبانية وهو سيد في الخمسين , قرر أن يعيش حياة الفرسان وراح يجوب الاقطار على حصان له وبعدة حربية

قديمة؛ ليصحح أخطاء العالم، ولأثبات فروسيته حارب كل مظاهر الحياة والطبيعة واشتهر بمحاربة طواحين الماء(24). يقول المقالح مخاطباً ((دون كيشوت)): (25)

بعيدة بعيدة عدن
الشمس يا ملوث اليدين يا ملوث الأفكار والبدن
أقرب من عدن فاركب حصانك الهزيل، شد سيفك المكسور
حلق وراء خارج الزمن فتش لأحلامك يا مأفون عن قبور
فتش لأوهامك عن وطن

ترى من يخاطب الشاعر في هذه القصيدة التي أثبتنا مطلعها؟ إنه يخاطب شخصية معاصرة جعل من (دون كيشوت) رمزاً لها ليكشف عن طبيعتها العاجزة، إنه يخاطب ذلك السلطان الذي صرح في بيروت في نهاية الستينيات أنه عائد إلى عدن ليقوم بحملة تأديبية لحكومة الشباب هناك، مع أنه قد هزم وطرد من عدن وانتهى عمره السياسي وانتصرت الثورة.

ولكنا سنظلم القصيدة ونظلم الفن إذا ربطناها فقط بذلك السلطان، لأن الرمز فيها يضخ معاني عديدة متجددة، وأشهد أنني سمعت هذه القصيدة مرات من إذاعة عدن فيما بعد يراد بها قوى أخرى تحاول النيل من عدن، وقد انسلخت من موضوعها الأول، وصارت تعوم في فضاء الحياة والفن تجتذب إليها معاني جديدة. يقول الشاعر في آخر قصيدته: (26)

بعيدة
بعيدة عدن
قلوبنا من حولها عيوننا أسوار
من أفقها يطل كالعملاق (ذو يزن)
يحرس يومها الكبير
يدير وجهها للشمس للنهار
يحفظها من نفسها من خصمها من الزمن
يوقد في المصابيح جديد النار
فأين دون كيشوت وجه العار
منه ومن عدن

لقد تضمنت القصيدة شخصية أسطورية أخرى هي (ذو يزن) كرمز للثورة التحررية في اليمن. وغير ذلك من المعاني الإيجابية.

وهذه قصيدة أخرى بعنوان (رسالة إلى عمرو بن مزيقيا) وعمرو هذا شخصية أسطورية من التراث اليمني، قد جاءت هنا عنواناً للقصيدة، وهو حاكم يمني باع أملاكه وفر من اليمن قبل انفجار سد مأرب المشهور،

وكانت العرافة (طريفة) قد أخبرته بقرب وقوع الانفجار، فأعلن خلافاً مزعوماً بين بنيه، وأظهر رغبته في بيع أملاكه ورحيله تجنباً لحدة الخلاف المزعوم(27). يقول الشاعر مخاطباً عمراً الرمز والواقع: (28)

تحيرت.. ثار

تهشم فوق الحروف القلم

من أين يكتب؟

أين مكانك يا (عمرو) بين الرمم؟

وأين الديار التي اخترتها موطناً لك قبل انهيار الجدارْ

وقبل انفجار العرم

إنما يخاطب الشاعر (عمرو بن مزيقيا) المعاصر متجسداً في أولئك الذين نهبوا أموال بلدهم وهاجروا بعيداً عنها وتركوها تعاني ما تعاني من ويلات الحرب والتخلف سواءً أكانوا مثقفين أم سياسيين أم تجاراً أم غير ذلك فالرمز نفسه يعطي إمكانية كبيرة للتأويل, سواءً في الحاضر أم في المستقبل وسواء في اليمن أم في خارجها. فهذا النوع من الناس موجود في كل زمان ومكان. وهكذا أثرى الرمز المعنى ، كما أثرى الشعر الرمز ، وارتبط الماضي بالحاضر والرمز بالحقيقة، والخيال بالواقع.

ويختتم الشاعر قصيدته بقوله: (29)

لقد كنت يا عمرو لعنة أيامنا الخالية

وما زلت لعنة حاضرنا

ثم أيامنا الآتية

إذا ما ارتحلنا ذكرناك يا أول الراحلين

وحين نفر من الليل أنت الدليل المهين

وتحت المناجم عند ثلوج الشمال

رسمناك وجه غراب حزين

يتمتم كل مساء تعال

هنا العار والمال هيا تعال

تعال.. تعال.. تعال

وكثيرة هي الرموز والأساطير والأحداث التاريخية التي وظفها الشاعر للتعبير عن مضامين معاصرة من مثل: (وضاح اليمن) وعمارة اليمني، وشهريار وشهرزاد وأبي نواس، ومالك بن الريب، وغير ذلك(30).

2. شعر التفعيلة:

تواجهنا في إطار شكل القصيدة عند المقالح ظاهرة (الشعر الحر) أو (شعر التفعيلة) وهذا النوع من الشعر لم يكن جديداً من ناحية الشكل فحسب إنما هو جديد بشكله وبمضمونه إذا جاز لنا الفصل بينهما، فقد استطاع

الشعراء أن يعبروا من خلاله عن مضامين الواقع الجديد بنوع من الدقة والكشف والتفصيل والتأني والحرية، بل والتجديد في اللغة والصور والمعاني وبعيداً عن الضجيج والخطابية الطاغية والأكليشات الفنية الصارمة.

ويعد المقالح من رواد هذا الشعر في اليمن ومن فرسانه على مستوى الوطن العربي؛ لقد بدأ ممارسة الكتابة الشعرية بهذه الطريقة منذ نهاية الخمسينات وبداية الستينات ولا تزال تجربة الشعر حينذاك طرية، أي تجربة الشعر الجديد ويعد أكثر شعره مكتوباً على هذا النحو الجديد في كتابة القصيدة، ويشكل شعره العمودي نسبة قليلة من سائر شعره، والمقالح منحاز للجديد سواءً في شعره أم في نقده، ولم يقف عند اللون الشائع للشعر الجديد بل كتب أيضاً القصيدة المدورة. يقول في قصيدة (عودة وضاح اليمن) : (31)

ضائعاً كنت في سفن الحزن، تحملني في بحار من اليأس، اذكرها تتعذب بعدي، تواجه أعداءها في ثبات، أمد يدي نحوها، تتراخى يدي تحت رعب المسافات، أبكي يطير بي الدمع، يرجع بي نحوها، يا لرخ من الدمع يحملني في حنان رحيم!

فالمقطع السابق شعر موزون على تفعيلة (فعولن) ولكنه جاء مدوراً. ولم يكثر الشاعر في تدوير قصائده على هذا النحو ولعل ذلك يعود إلى طول نفس القصيدة المدورة في الوقت الذي يريد الشاعر والقارئ أن يتوقفا بين سطر وآخر فلا ينبغي للشعر الجديد أن يتخلص من قيود القصيدة العمودية ليقع في قيود القصيدة المدورة.

3. مسحة الحزن.

رأينا ان نسلك هذه الظاهرة ضمن الظواهر الفنية لانها لم تكن موضوعا ولكنها حالة تخللت معظم شعر المقالح وموضوعاته وتجلت من خلال اللغة الشعرية والصورة .

أن في شعر المقالح مسحة حزن شفيفة تغلف شعره، بيد أن هذا الحزن الشفيف لم يكن حزناً رومانسياً، فهذا الأخير كان حزن مرحلة تاريخية ومدرسة أدبية، أما حزن المقالح فيعود إلى التركيب النفسي للشاعر، هذا التركيب الذي تكون في ظروف طفولته وصباه وشبابه، فنحن واجدون هذه المسحة حتى في شعره النضالي، وفي شعره المعبر عن الفرح.(32)

وعلى أية حال فظاهرة الحزن بارزة في الشعر العربي المعاصر بوجه عام. وقد رصدها الباحثون وعللوها(33). ولا نزعم أن حزن المقالح محاكاة لحزن معاصريه في أشعارهم مثل صلاح عبدالصبور والبياتي وأحمد عبدالمعطي حجازي وغيرهم كما لا نتجاهل أثر المرحلة في توليد هذه الظاهرة في الشعر العربي المعاصر ومن ضمنه شعر المقالح، لأنها مرحلة تطلع إلى مستقبل أفضل للبلاد العربية، وفيها عرف الشعراء رسائلهم أمام شعوبهم أو قل أمتهم الممزقة بل وفهموا واقع بلادهم، فمعرفة الحقيقة عادة هي التي ترسخ الحزن وليس جهلها، والذين عرفوا الحياة على حقيقتها هم الذين كانوا حزانى في أشعارهم سواءً في القديم أم في الحديث وهذا الشاعر الناقد يعلل هذه الظاهرة في شعره بقوله في مقدمة الديوان: "أما في الديوان الثالث (رسائل إلى سيف بن ذي يزن) فقد بدأ لي الشعر وكأنه صوت الحزن النابت في ضلوع البشر فكانت قصائده صدى لذلك الصوت الغائر في الأعماق والصلاة اليومية التي نؤديها في بيوتنا فرادى وجماعات والوجبة التي لا تنقطع ولا تتأخر ".(34)، ثم يتساءل الشاعر في المقدمة نفسها: "لماذا الحزن، لماذا كل الشعراء حزانى".(35)

ثم يذكر طابوراً طويلاً من الشعراء الذين عرفوا بأحزانهم مثل صاحب القروح امرئ القيس الذي بكى واستبكى، ومالك بن الريب، والمتنبي وأبي العلاء وغيرهم في القديم والحديث، في الشرق وفي الغرب. (36)

وعلى أية حال فالحزن ليس غريباً عن الحياة ولا طارئاً عليها فهو عنصر رئيس فيها، ولولاه ما استطعنا أن نميز الفرح فضلا عن ان حالة الاغتراب التي عاشها الشاعر العربي المعاصر بوجه عام عن العقيدة الاسلامية بفضاءاتها الروحية والفكرية والاجتماعية . يقول الشاعر في قصيدة له بعنوان (تأملات حزينة فيما حدث) يقول: (37)

حزين أنا والنهار
وشباك نافذتي والجدار
وصورتها.. يوشك الحزن يذبح قلب الإطار
كتابي حزين وهذا القلم
وعصفورة خلف بابي تنث الألم
وأشجار حارتنا والكلاب حزينة
ووجه المدينة

لقد انعكس العالم الداخلي الحزين، للشاعر على العالم الخارجي، فبدت كل الأشياء حزينة، إنه حزن واقعي فلسفي، حزن البحث عن الحقيقة والكمال في ظل ضمور ايماني وشيوع للفكر الغربي .

4. الوضوح الفني:

ثمة ظاهرة في شعر المقالح اجتهدنا فسميناها (الوضوح الفني) اذا جاز لنا مثل هذا الاصطلاح .

إن كثيراً من الظواهر التي وجدناها عند المقالح كانت موجودة في الشعر العربي المعاصر، أي الشعر الحر، بيد أن ظاهرة (الوضوح الفني) في شعره جاءت مخالفة لظاهرة (الغموض) في الشعر العربي الجديد، ولعل هذا يعود إلى تأثره بمن سبقه من شعراء اليمن كالزبيري مثلاً الذين كانوا حريصين على وضوح المعاني من أجل التنوير والتثوير بل والتأثير في القراء في مختلف مستوياتهم، وكثير من جمهور الشعر في اليمن أميون، يعتمد على حاسة السمع في التذوق والفهم، والشاعر المقالح يؤمن بالتواضع مع القارئ ولو كان ذلك على حساب الفن، والحق أن الشاعر قد استطاع أن يكون واضحاً في شعره وضوحاً فنياً لا تقريرياً جافاً ومباشرا في الوقت الذي حافظ فيه على الفن والجمال في هذا الشعر، فلم يتمرس وراء الغموض ولم يقع في السطحية وهنا تكمن العبقرية الشعرية.

إن الوضوح في شعر المقالح ليس هو ذلك الوضوح الكامل حتى إننا نعتناه (بالفني) إذ أن لجوءه إلى التصوير وتوظيف التراث لا يسمح بالمعرفة الكاملة للشعر كما أنه لا يقود إلى الغموض ولكنه يمنحنا قدراً كافياً من الفهم حسب ثقافة القارئ، ومع تجدد القراءات يتجدد الفهم وينمو التأويل لأن من عادة اللغة الفنية المصورة أن تضخ معاني كثيرة متجددة.

وقبل أن ننهي الحديث في هذه الظاهرة رأينا أن نمثل لها بقوله في قصيدة (صورة الطاغية) (38)

لا أسميه فأنتم تعرفونه

كل يوم فوق أجفان الضحايا تقرأنه

في المقاهي تبصقونه

في الزوايا..

عند أكواخ اليتامى تلعنونه

إنه أشهر من تاجر في سوق العبيدْ

في بلادي حيث يبدي ويعيد

حيث لا شيء جديدْ

فلا شك في وضوح هذا المقطع؛ بيد أنه لم يكن بوضوح الشعر الكلاسيكي الذي يعني شيئاً واحداً محدداً وكثيراً ما يسمي الأشياء بأسمائها.

إن هذا المقطع يسمح بتجدد التأويل، فمن هو هذا الطاغية؟ قد تتعدد الإجابات بل وتتغير من زمن إلى آخر حسب زمن القارئ ومكانه وثقافته وإن يكن الشاعر قد قصد طاغية معيناً فإنه لم يقع في التقريرية والفوتوغرافية والتحديد. فقد ذكر أرسطو أن الشعر يحكي المثال والعام.(39)

الاهتمام بالموسيقى والقافية:

لم يتحرر الشعر الجديد من الوزن والقافية ولكنه تحرر من البحر الشعري أما الوزن فموجود من خلال التفعيلة التي ينسج عليها الشاعر قصيدته وأما القوافي فهي ما يقف عليه الشاعر في نهاية الأسطر، وقد اختلف الشعراء المعاصرون في شأن اهتمامهم بالقافية فمنهم من اهتم بها كثيراً ومنهم من كانت قوافيه مرسلة أي ليست ذات روي واحد. أما شاعرنا المقالح فهو من الشعراء الذين اهتموا بوزن الشعر وقوافيه في شعره الجديد مع أنه ـ ناقداً ـ

لا يشجع على التزام القوافي ذات الروي الواحد وظهور الموسيقى، وهذا يعني أن ذوقه الفني كشاعر لم يتخلص من ظهور الموسيقى والاهتمام بالقافية، فضلاً عن رغبته في عدم الشطط في التجديد على حساب الجمهور والذوق العام ورسالة الشعر، ومن هنا كان الشاعر يحظى بتواصل كبير مع جمهور الشعر في اليمن وفي البلاد العربية.

وما أثبتناه من شواهد شعرية للمقالح خلال الصفحات السابقة يدل على صحة ما ذهبنا إليه فيما يخص هذه الظاهرة.

هوامش البحث

1. ينظر: ثرثرات في شتاء الأدب العربي: د. عبد العزيز المقالح، دار العودة , بيروت ط1، 1983م ص33وما بعدها.
2. المرجع السابق، ص35.
3. ديوان الزبيري , دار العودة , بيروت 1986م , ص527 .
4. ديوان عبد العزيز المقالح، الطبعة الأولى 1977م، دار العودة، بيروت، ص 110- 112.
5. الديوان، ص 420 - 423.
6. الديوان، ص 196.
7. الديوان، 41.
8. الديوان، ص87.
9. الديوان، ص204.
10. الديوان، ص 204
11. ينظر: الشعر المعاصر في اليمن د. عزالدين إسماعيل 1986م دار العودة، بيروت، ص214 وما بعدها.
12. الديوان، ص146.
13. الديوان: ص155.
14. الديوان، ص69.
15. الديوان، المقدمة ، ص8.
16. الديوان، ص51.
17. الديوان، ص289.
18. الديوان، 605.
19. الديوان، ص45.
20. الديوان، ص91.
21. الديوان، ص459.
22. الديوان، ص137.
23. رحلة في الشعر اليمني، قديمه وحديثه: عبدالله البردوني ط4، 1982م، دار العودة بيروت، ص213.
24. ينظر المعجم المفصل في الادب , محمد التونجي , دار الكتب العلمية , بيروت , ط2 , 1999م , ج2 / ص454
25. الديوان، ص 158.
26. الديوان , ص159 .
27. ينظر: ترجمته في، الاعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت، ط15، 2002م،8/5.
28. الديوان، ص103.

29. الديوان , ص 103 .

30. ينظر، القناع في الشعر العربي الحديث، د.سامح الراشدة، ط 1 , 1995م ,مطبعة كنعان ،الاردن .

31. الديوان , ص529 .

32. ينظر , رحلة في الشعر اليمني , ص213 .

33. ينظر، الشعر العربي المعاصر، د.عزالدين إسماعيل،ط1 , 1981م، دار العودة، بيروت، ص350 وما بعدها .

34. الديوان، ص11 .

35. الديوان، المقدمة , ص11.

36. الديوان، المقدمة , ص12 .

37. الديوان , ص201 .

38. الديوان , ص164 .

39. ينظر، في نظرية الأدب، د.شكري عزيز الماضي الطبعة الأولى،1986م، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ص36 .